الأزهر فى مفترق الطرق

للاستاذ أحمد الشرباصى

من شرائط الوصول إلى الحق ، والتوفيق لكلمة الصدق ، القصد فى النقد ، والاعتدال فى الحكم ، والنزاهة فى الرأى ، والنأى عن الاستجابة لعاطفة قوية أو غى جامح ! وكم من حقوق ضاعت بين الهوى الفرط والبغض الفرط ؟ وكم من صيحات إخلاص بعضها مخلص ضاعت فلم يستجب لها أهلوها بسبب ما اكتنفها من شدة أو إسراف ! ..

لقد فسحت « الرسالة » الزهراء صدرها الرحيب للاقلام الناشئة والقديمة على السواء لكى تصول وتجول فى الحديث عن الأزهر والأزهريين ، واشترك فى هذا الميدان الأزهرى الشاب والأزهرى المجوز والأزهرى الوسط ؛ وتلك عناية مشكورة تبديها الرسالة الغراء بالأزهر ، أو بمعنى أدق تعيدها ، فليست الرسالة بجديدة العهد والصلة بالأزهر ، فمنذ سنوات وسنوات وهى تهتبل الفرص والمناسبات لتذكر بخير أو تدعو الأزهريين إلى معروف ، فشكر الله لها ، وجزاها خيرا كفاء ما قدمت وتقدم

لكنى لاحظت على كثير ممن كتبوا أنهم غضبوا لنقص موجود أو عيب تأثم أو ضيق تضيع ، فهرعوا وراءهم المسنونة ، بدل أن يشرعوا أقلامهم الرقيقة الرقيقة ؛ فشنوها حربا قاسية على الأزهر . والأسلوب إن حمدناه عند دواعى اليأس والرغبة فى إثارة الهمم واستنهاض العزائم ، فإن نحمده حين يكون المقام مقام بحث عن حقيقة ، ووصول إلى فكرة ، وتحديد لهدف ، واتفاق على وجهة إصلاح ! ... وكيف يتأتى ذلك والأقلام المشبوبة قد صورت أن الأزهر قد خلا من معناه ، ومن رجاله الجدراء به ، ومن الكتاب الصالح فيه ، ومن المدرس الصالح له ، ومن الطالب المتز به ، و .. ماذا بقى بعد هذا من الأزهر المسكين حتى يحكم عليه بالوجود ، أو بعدم الوجود ؟ .. لم يبق اللهم إلا هذه الأحجار المرصوصة التى نالت منها يد الزمان ما نالت ، ونالت منها يد المصلحين أو المبدلين ما نالت هى الأخرى ، وما أهون هذه الأحجار مجردة فى نظر الناس ونظر التاريخ ! ..

وهل حقيقة أفلس الأزهر كله من رسالته وجماعته وكتبه ومدرسيه ؟ .. فلنتريث فى الجواب حتى نعرف فصل الخطاب ! .. لا جدال فى أن الأزهر الشريف كان قبل النهضة المعاصرة يغط فى سبات عميق ، وكان مقطوع الصلات بالحياة والأحياء ، وكان أشبه بالأثر الكريم العزيز على قومه ، لا ينتفعون منه ولكنهم يبقون عليه إجلالا للماضى وهيبة من التبعة ورجاء للمستقبل .. ثم تنادى الغير المصلحون بوجوب إخراج الأزهر من عزلته فخرج بلاشك .. صدرت من أجله القوانين وغيرت النظم واستحدثت الوسائل وجددت الأشكال والمظاهر ، وحذفت كتب وجاءت كتب ، وطعمت طرق التدريس فيه بما طعمت .

وخدع الأزهر بريق التجديد فانطلق فى سبيله عجلان لا يتلبث ، وأسرف فى هذا التجديد بلا تحديد ، أو بلا تفرقة بين التجديد

قد تسارع الكتلة الأخرى إلى النجدة ولن تفعل إلا عن أنانية .. تسارع ولكن هذه المسارعة لن تكون مضمونة النتيجة ؛ فهم لم يدرسوا فى السلم وسائل الدفاع فرد العدو سيكون أمرا يقرب إلى الاستحالة وحجتهم فى يدهم هكذا كان الأمر مع بلجيكا وهولاندا .

أيها السادة .. أنحن الآن على حياد ؟ أنشارك فى كل هذه المؤتمرات ونقتبس من الغرب كل هذه الثقافات ونسمى أنفسنا على حياد ؟ أى حياد ؟

لعلكم تسمون ذلك الحياد الذى التزمته بعض الدول فى الحرب العالمية الأخيرة فكان هتلر يلتهمها الواحدة بعد الأخرى .. إن الأمم المحايدة حبات من الذرة يمر بها الديك فلا يبذل غير نبشة بمخلب واحناءة رأس ليلتقطها .. أما هذا الديك فقد أثبتت الحوادث العالمية وما تزال تثبت أنه ما تكون إلا من تكتل وتضامن .

إن الحياد أيها السادة أصبح تقليدا عتيقا أشبه ما يكون بموظف ترك الخدمة فأصبح ولا عمل له إلا قهوة وطاولة فى الصباح ، وجريدة وشيشة فى المساء .. فهو يقضيها أيام انتظار بلا أمل .. ويقطعها أمسيات نوم بلا غد . ولن تصبح مصر أمة على المعاش وشيوخها شيوخها ، وشبابها أنتم ، ومليكها الفاروق

ثروت أباظة

فى المفيد والتجديد البعيد عن الجوهر والأصل ، حتى أشفق بعض الناس على الأزهر الشرقى العربى الإسلامى المصرى من هـذه الوثبة الواسعة التى لا تطيقها أقدماه اللتان طال بهما الوقوف والسكون ، فدعوا الأزهر إلى التأنى والالتفات إلى الوراء ، لعله ترك خلفه ما هو أولى بعنايته واهتمامه مما يخطف بصره من بريق يتطلع إليه فى الأمام .

ووقف الأزهر حائرا مبلبل الفكر تائه اللب ، يريد أن يرضى دعاة التجديد فيسمى نفسه جامعة ، ويرسل بعثه إلى أوربا ، وينشىء كليات ومعاهد ، ويقيم معامل وملاعب ، وغير ذلك من أشكال وأنماط ، ويريد أن يرضى أيضا دعاة القديم فيدرس كتب القدماء ، ويعنى بالمتون والشروح والحواشى والتقارير ، ويلتزمت فى التقيد بآراء السالفين حتى فيما تحسن فيه الحرية كالأدب والبلاغة وعلوم البيان . . ومن هنا يستطيع من يريد أن يلتمس للأزهر وجوه محافظة وإيثار للقديم أن يجد ما يريد من الشواهد والبراهين ، كما يستطيع من يريد أن يصف الأزهر بالتجديد أو بالتجديد فى الشكل دون الجوهر والأصل أن يجد ما يدلل به على ما يقول .

ونستطيع نحن أن نقول إن الأزهر الآن فى فترة بلبلة واضطراب ، فلا هو بالقديم ولا هو بالجديد ، وحتى اليوم نستطيع أن نقول إن الأزهر قد عرف طريقه المستقيم بين أنصار القديم وأنصار الجديد ؛ فقد جدد فعلا ولكن التجديد فى الغالب كان فى الأساليب والأوضاع لا فى المناهج والأهداف ، واستحدث فعلا ولكن على سبيل المتابعة والاقتداء لا على سبيل الاقتناع أو الاستقلال . وحسبك دليلا على هذا أن الأزهر فى الغالب ينتظر حتى يتصرف سواه ثم يسير هو على خطاه !

والأزهر محافظ فعلا رغم هذا التجديد ، فروحه وكتبه وأفكاره وطرزه فى تناول الأشياء وأحكامه على أمور الحياة وخاصة عند الكبار ، كل هذا لا يزال وثيق الصلة بالماضى ، عريق الجذور فى تربة السلف ! . .

لكن هل معنى هذا أن الأزهر متخلف أو جامد أو ميت ؟ لا ، فالأزهر سائر حى متحرك يأخذ طريقه إلى ما يريد ، أو إلى ما يراد له ، يستقيم على الطريقة حينا ، ويتعثر فى خطواته بسبب الأعاصير أو الأضاليل أحيانا ، ولا أزيد !

وهل معنى هذا أن الكتاب فى الأزهر لم يتغير ولم يتبدل ؟ كلا ، فقد تبدلت الكتب وتغيرت ، طبعت الكتب الصفر طبعة جديدة ، ونقحت وهذبت وعلق عليها وترجم لرجالها ، وجدت فيها بعض التغيير والتجديد ، وإذا كان هذا لم يخرجها بأكملها عن صورتها الأولى فليس ذلك بضائرها فى فترة نعتبرها فترة مجربة وانتقال من حال إلى حال فى تاريخ الأزهر الطويل . . كذلك ظهرت فى الأزهر كتب جديدة لها قيمتها العلمية ، وأنشأها رجال فى الأزهر لهم مكانتهم وثقافتهم ، ونستطيع الآن لكى نقتنع بهذا أن نتذكر كتب أمثال الأساتذة الأجلاء شلتوت و محمد يوسف موسى والصعيدى وغلاب وحامد محمود والبهى وماضى وعنتر ومحيى الدين والمدنى والنجار ويوسف الشيخ وحامد عونى وغيرهم .

كذلك فى الأزهر بلاشك اليوم كوكبة معجبة من الأساتذة المدرسين ، وأعلبهم من الشباب ، وهؤلاء فيهم الثقافة والدربة وسعة الأفق والشوق إلى العمل والإصلاح ، ولكن حوائل كثيرة تقف فى وجوه هؤلاء فلا تمكنهم من تحقيق ما يريدون من أحلام وآمال ؛ فإذا أردت إيقاعى فى « شر عملى » وسألتنى ومنذا الذى يقيم تلك الحوائل ؟ . قلت لك : ارتفع فى الصفوف العليا ثم اسأل ! . .

قد تسألنى : وما عيوب الأزهر إذن ؟ فأوجز لك قائلا : عيوب الأزهر هى الحيرة بين القديم والجديد ، انقطاعه عن متابعة الحياة ، وتفرق وجهات النظر فيه ، وتوتر العلاقات الداخلية بين أهليه ، وتبابعته متابعة التسخير لسواه ، وانصراف الطلاب عن وجهته لانشغالهم بغيره من جواذب الحياة ؛ فمن للأزهر بعد كل هذا ؟ . . له الله . .

أحمد الشرباصى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى